

البيئة والمؤسسات الدينية

غالبا ما يبدو الدين في الأنظمة العرقية البسيطة عبارة عن طقوس تحدها البيئة. فالدين هو الوسط الذي يستخدم لاسترضاء الطبيعة والتزلف لها أو يعالجها لتأمين أفضل النتائج بالنسبة للإنسان. وحتى في أخفض المستويات نجد كل ثقافة تعمل بشكل اصطفائي على الاستفادة من موارد الدين المقدسة المأخوذة من المحيط والبيئة. ويصبح السلوك الديني لمثل هذه المجتمعات شرح وتسجيلا للظواهر المختارة السائدة بالنسبة للأحوال الاقتصادية لذلك المجتمع. ولقد استطاع الباحثون استنتاج بعض مظاهر الطقوس والأديان التي كانت سائدة في العصور الحجرية القديمة في أوروبا هذه الأحوال العامة السائدة بين المجتمعات البسيطة وقد اعتبرت بعض الرسوم المعروفة في الكهوف في جنوب فرنسا كتعبير عن رقصة طقوسية ترافق وتصاحب مراسم الصيد. كما أن معظم الشعوب الحضرية (غير البدوية المتنقلة من العاملين في الزراعة في البلدان الاستوائية والمدارية الرطبة لديهم طقوس دينية لها علاقة بالدورة الزراعية الطبيعية والعلاقة ما بين الإنسان والأرض. وهناك عدة فئات قبلية في جنوب شرقي آسيا من المزارعين المتنقلين وزارعي الأرز يراعون بعض مراسم التقديس لكل مرحلة من المراحل الزراعية فيقيمون نوعا . الحجر الصحي في القرى فلا يسمحون لأي شخص بالدخول إلى القرية أو الخروج منها ويمارسون نوعا من المنع Taboo أو العزل للجميع ما عدا بعض النشاطات الخاصة. وهذه التواريخ المقدسة الموجودة في التقاويم الزراعية تطلق عليها عدة أسماء فشعب جزيرة منتواي غرب سومطرة يطلقون عليها

اسم بونين Punen وأما شعب كايان وكيناه في جزيرة ساراواك فيطلقون عليها اسم بانتانج Pantang ويطلق عليها شعب بونتوك Bontoc الذين يعملون في مزارع الأرز شمال لوزون Luzon اسم أوبايا Obaya. ويقوم شعب البونتوك هذا بذبح الضحايا الحيوانية مدة ثلاثة أيام في بعض المناسبات: مثلا عند الاحتفال بحرثة الأراضي استعدادا لغرسها بنبات الأرز أو عند إعداد الشتلات الصغيرة أو بذر البذور أو عند ظهور الشتلات ونموها أو عند نقل الشتلات وزرعها في الحقول الواسعة ويقومون بذبح الضحايا الحيوانية استبشارة بازهرار نباتات الأرز وعند الاستعداد لموسم الحصاد وعند إتمام الحصاد في أعياد وولائم تدوم سبعة أيام.

وغالبا ما يعبر عن المتطلبات الزراعية بمختلف الطقوس الرمزية كالطقوس التي يقوم بها شعب الهوبي Hopi البارعون في زراعة الذرة في ولاية اريزونا Arizona في الولايات المتحدة الأمريكية إذ يقيم هؤلاء مقامات يعلوها الريش في الحقول ويقومون بنشاطات احتفالية في جميع وهي تشير إلى الازدهار الزراعي الذي تلعب به الذرة الدور الرئيسي . وهذه الطقوس ذات الدلالات البيئية تنحصر في زراعة الذرة والفاصولياء في غرفة طقوسية واقعة تحت الأرض وذلك في أواخر فصل الشتاء ثم زراعة بعض العصي التي تحمل أكواز الذرة بعد إعداد الأرض ثم الاحتفالات بتشجيع نزول المطر وهذه تشمل رقصة الثعبان. وتشمل هذه الطقوس والاحتفالات الطقوسية التي تدوم طيلة العام رموزا تشير إلى قصة التكوين حسب آراء الشعب الهوبي Hopi تماما .

والآن نجد لزاما علينا تأكيد الطبيعة الاصطفائية لهذه الطقوس البيئية . إذ

نلاحظ أن مالينوسكي Malinowski يعتقد أن الطقوس ما هي إلا رموز للتوكيد على الأمور الغيبية التي لا يمكن التنبؤ بها فهناك أحد الطقوس السحرية السائدة بين إحدى القبائل المالينيزية يرافقها صيد السمك في البحار العميقة وهذه العملية غير مؤكدة النتائج وصعبة وخطرة ولكن هناك بعض الطقوس التي تشير إلى طريقة أكثر جدوى وأسلم وهي صيد السمك في البحيرات الضحلة قليلة العمق. وفي بعض الحالات نجد الخرافات والطقوس تتبلور حول بعض العناصر البائدة والتي لم يعد لها أثر في بيئة بعض المجموعات البشرية . فهناك بعض الشعوب التي تحولت من حالة الصيد إلى الزراعة لا تزال تحتفظ ببعض الطقوس المتعلقة بالصيد ولا تقييم وزنا للطقوس الزراعية .

وكذلك هناك بعض المجتمعات الزراعية التي تحولت إلى الأعمال التجارية لا تزال محتفظة بالطقوس الزراعية والنباتات . إن سيادة كلا الثقافات الاصطفائية التي تقدر اقتصادياتها من خلال الطقوس وسيادة الاهتمام والإصرار على إحياء الطقوس البائدة تظهر بشكل

واضح وعلى مستوى البيئة بمقارنة بين الأطعمة الطقوسية الرئيسية المستعملة في منطقة حوض البحر المتوسط ومثيلاتها في شمال الهند. ففي الديانة اليهودية رغم بيئتها الرعوية تأكل الخبز وليس اللبن هو الغذاء الطقوسي المفضل. وإن طبيعة الاختيار والاصطفاء سائدة في معظم الديانات والأنظمة الدينية المختلفة في مناطق حوض البحر المتوسط الأخرى.

الدين والأرض

إن أحد اهتمامات جغرافية الأديان هو كيف أن الأرض تقدم سجلا للأنظمة الدينية ومؤسسات هذه الأنظمة المرافقة لها ونماذج عن السلوك

الديني. ولقد حصلت محاولات لمعرفة الظواهر الأرضية البارزة المرافقة للأنظمة الدينية التاريخية القديمة والمعاصرة ولكن لم تحصل إلا محاولات قليلة لتقدير شدة وزخم التأثيرات الدينية على الأرض. وسوف ناقش هنا الأمثلة حول أثر الديانات في تحول الطبيعة الأرضية وسوف نؤكد على بيان الفروق بين الأنظمة الدينية المختلفة .

التعبيرات الإيجابية للدين بالنسبة لطبيعة الأرض:

إن شكل وتوجيه وكثافة المنشآت الدينية واستعمال الأرض لأغراض الدفن وعمل المقابر والمجموعات الخاصة النباتات والحيوانات المستعملة للأغراض الدينية هي من بين التأثيرات والمظاهر التقليدية للأنظمة الدينية على الأرض. وبينما نجد أن البنود المذكورة أعلاه غير كافية إلا أنها تشير إلى الأعمال والأبحاث التي قد جرت حتى الآن والخطوط التي جرى عليها البحث.

المنشآت المقدسة :

ليس هنالك من توزيع واسع أو بارز للمنشآت الدينية المقدسة بين الأديان العرقية البسيطة حيث تكون العلاقات البيئية علاقات مباشرة وعميقة . يحدث اختلال التوازن عادة عندما يعمد نظام ديني أجنبي مثل البوذية

في جنوب شرق آسيا إلى تنظيم الاقتصاد البسيط في تلك البلدان. فالكنائس الكاثوليكية التي بنيت في البلدان النامية كلفت مبالغ طائلة وقد شكا الحكام الأسبان في بلاد المكسيك في القرن السادس عشر من النفقات الباهظة التي رقت على بناء الكنائس وقالوا أن هذه الكنائس سببت في بنائها سحب كميات هائلة من العمل الذي كان من المفروض أن يوجه إلى الاقتصاد الوطن. وهناك مظهر من المظاهر الواضحة بالنسبة لبناء الميجاليث والمعابد وهو الحصول على الحجارة وما يتبع ذلك من مجهودات. فقد كانت الحجارة الزرقاء تنقل من جنوبي ويلز إلى سهول سالزبوري لإقامة الدوائر الحجرية في ستونهنج وقد كان الحافز لهذا العمل دينية بقصد جعل تلك الحجارة مناسبة لبعض الأغراض الدينية .

وتعمد الأنظمة الدينية العرقية والعالمية إلى بناء منشآت مبعثرة ومقدسة فوق مناطق واسعة وتختلف هذه البنايات في أشكالها ومساحاتها ومتطلباتها طبقا لحاجات النظام الدينية والإيديولوجية. وإن اختلاف حجم وكثافة المنشآت سواء كانت كنائس وجوامع أو معابد يعتمد على وظائفها الدينية بصورة رئيسية . وهناك فرق بين المعابد التي تضم المتعبدين فقط أو التي تضم بين جدرانها إلهة من الآلهة ولكن في الديانة

الصينية والرومانية في أوائل عهد الجمهورية كانت الطقوس الهامة تتم في البيوت وليس في المعابد. أما في الديانة المسيحية فإن وظيفة الكنيسة احتفظت بصفات مشابهة

وصفات مخالفة في نفس الوقت وقد نشأت مشادات تاريخية بين هاتين الصفتين. ففي أوائل عهد المسيحية اعتبرت الكنيسة بيتا للمصلين وبعد أن اعترف بالمسيحية كديانة رسمية تغير مفهوم الكنيسة فأصبح متبعة شكل

الباسيليكا وهو مكان الاجتماعات العامة الرومانية وأما في الكنائس الشرقية الأرثوذكسية فقد أدى تطور الإدارة الكهنوتية للطقوس إلى جعل المذبح أساساً للأغاز الدينية وقد احتفظت الكنائس في شمال أوروبا بهذا المفهوم بعد الإصلاح الديني خصوصاً الكنائس الحرة بينما عدلت الكنائس البيوريتانية والكويكرز وظائف الكنيسة فجعلتها البيت الخاص بالوجود الإلهي. وتنعكس الوظيفتان في أسماء مختلفة في اللغات الأوروبية فكل مأخوذة من اليونانية ومعناها بيت الله. بينما نجد الكلمة الفرنسية *eglise* مأخوذة من الأسبانية *iglesia* وهذه مأخوذة من كلمة *ekklesia* اليونانية ومعناها الاجتماع ومن الغريب أن نجد المعنى الأساسي منعكس في كلا المنطقتين اللغويتين. وحتى في الأنظمة البروتستانتية نجد تراكيب واضحة للنشاطات الدينية تتخذ قالباً تقليدية.